﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

البَراهينُ القَطْعِيَّة على صِحَّةِ القُرآن الكريم

لمّا كانَ ما ادَّعاه المُشْرِكونَ في وصْفِ القُرآن الكريم بالإفكِ باطِلًا في نَفْسِه؛ لِما قامَ مِنَ البَراهينِ القَطعِيَّة على صِدْقِ القُرآن الكريم، وكانت عِنايتُهم بالمَحْسوساتِ في الغالب؛ لعَدَم نفوذِهم في المَعْقولات؛ أعقبَهُ ببَيانِ بُطلانِ دَعواهُم في وصفِ القُرآن الكريم، وذلكَ بالاستدلال بموافقةِ القُرآن الكريم لأعظَمِ الكُتُبِ القَديمَةِ التي اشتَهر أنَّها مِن عندِ اللّه تعالى، وهِيَ التَّوراة، فَقالَ سُبْحانه: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِمَامٗا﴾: (أمم) تدلُّ تصريفاتُه على معانٍ، وهي: الأصلُ، والمرجِعُ، والجماعَةُ، والدّينُ[2]، وكلُّ شيء يُضمُّ إليه سائرُ ما يليه؛ فإنَّ العربَ تُسمِّي ذلك أُمًّا، ومِن ذلك: أمُّ الرَّأس، وهو: الدِّماغ، وأمُّ القرى: مكَّة، وكلُّ مَن اقتُدِيَ به، وقُدِّمَ في الأمور؛ فهو إمامٌ، والنَّبيُّ ﷺ إمامُ الأُمَّة[3]، وأمَّهُ أمًّا؛ إذا قصَدَهُ، وأمَّمَهُ وتَأمَّمَهُ: قصَدَهُ كذلك[4]، والإمام في الآية: ما يُقتدى به، ويُهْتَدى، ويُسْتَرشَد[5].

2) ﴿لِّسَانًا﴾: (لسن) تدور اشتقاقاتُه على طولٍ لطيفٍ ليسَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 141.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(3) الخليل، العين: (أمم).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (أمم).
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 780.

ببائِنٍ في عضْوٍ أو غيرِهِ[1]، واللِّسانُ: ما يُنطَقُ، وهوَ يُذَكَّر، ويُؤَنَّث، واللِّسانُ: الكلامُ[2]، واللِّسانُ: اللُّغةُ، يُقال: فلانٌ يتكلَّمُ بلسانِ قومِه، أي: بلُغَتِهم، ويُقالُ: إنَّ لسانَ النّاسِ عَلَيْك لَحَسَنةٌ وحَسَنٌ، أي: ثَناؤهم[3]، وقول اللّهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، معناهُ: ملفوظًا به على لسانِ العرَبِ[4].

3) ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: (بشر) تدُلُّ تصْريفاتُه على ظُهور الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وجَمال[5]، والبِشارةُ - بكَسْرِ الباء - كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغَيَّر بَشرةُ الوجهِ به، وبِناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُستعمل في الخَيْرِ والشَّرِّ، إلّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ، وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ البِشارة هِيَ الخَبَرُ السّارُّ وحدَهُ، واستعمالُه في غيرِهِ مِن بابِ التَّهَكُّم[6]، والبِشْرُ: طَلاقَةُ الوجه، يُقال: فلانٌ حَسَنُ البِشْرِ، وقول اللّهِ تَعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، معناه: إخبارٌ بما يَسُرُّ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القُرآن الكريمُ كِتابُ الحَقِّ الواضِحِ والإنذارِ الصّادقِ والبُشْرى العَظيمَةِ

يُبَيِّن اللّهُ تعالى أنَّ التَّوراة أنزلها قبلَ هذا القرآنِ إمامًا يَهْتَدي بها بنو إسرائيلَ، ورحمةً لمَن آمن بها، وعَمِلَ صالحًا، وأنَّ هذا القرآنَ كتابٌ مصدِّق لِما قبله من الكُتُبِ السَّماويَّة، وقد أُنْزِل بلِسانٍ عربيٍّ واضِح؛ ليكون تَحْذيرًا شديدًا للَّذين ظلموا أنفسَهُم بالكُفْرِ والمَعاصي، وبِشارةً عُظْمى للمُحْسِنين الذين آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحات، فيَجِدون فيه الهُدى والثَّواب في الدُّنيا والآخِرة[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(2) الخليل، العين: (لسن).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (لسن).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 31.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(6) الشَّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 78.
(7) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنى الواوِ ودِلالَتُها:

تَتِمَّة إبطال مَقالَةِ المُشْرِكين في القرآن الكَريمِ

الواوُ في ﴿وَمِن﴾ مِن قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على ما تقدَّمها من إبطالاتٍ ورُدودٍ على ما زَعَموهُ مِن استحالةِ نبوَّةِ محمَّد ﷺ ورَمْيِ الكلماتِ والآياتِ بالسِّحْرِ والافتراء، مع التَّنويه بشأن القرآن ورِفْعَتِه، والنَّعْيِ عليهم في حرمانِهم أنفسَهُم الانتفاعَ بِهِ[1]، وهذا الإبطالُ ردٌّ لاتِّهامِهم له بأنَّه إفكٌ قديمٌ وكذبُ الأوَّلينَ نقلَهُ مدّعيه، ونَسبَهُ إلى اللّه تعالى؛ وذلك أنَّ كونَهُ مصدِّقًا للتَّوراةِ مقرِّرٌ لكونِه حقًّا على وجهِ القَطْعِ واليقينِ[2].

مَعْنى (مِن) وفائدةُ ذكرِها:

علوُّ شأنِ القُرآن لختمِهِ جميعَ الكُتبِ

(مِن) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أفادَتْ مَعْنَيين؛ **أحدُهما:** تَوكيدُ المَعْنى وتَقْوِيَتُهُ، وهذا هو المَعْنى الغالبُ على (مِن) الواقِعَةِ مَعَ (قَبْلُ) و(بَعْدُ)، **والآخَرُ:** الإيماءُ إلى أنَّ كتاب موسى عليه السلام لم يستَغْرِق الزَّمَنَ السّابقَ، فمَعْنى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: إنَّ التَّوراةَ كانت في بعض أزمنةِ الماضي[3].

دلالةُ استعمالِ ﴿قَبْلِهِۦ﴾:

الوحيُ سنَّةٌ إلهيَّةٌ ومِنحةٌ ربّانيَّةٌ

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ (قبل) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ للدَّلالةِ على السَّبْقِ الزَّمنيِّ لنزولِ التَّوراةِ على القُرآنِ الكريم، ممّا يدلُّ على أنَّ الوحيَ سنَّةٌ إلهيَّةٌ ومِنحةٌ ربّانيَّةٌ، وليسَ أساطيرَ الأوَّلينَ وإفكًا قديمًا، ولا يلزمُ منَ السَّبقِ الزَّمنيِّ الأفضليَّةُ الرُّتبيَّةُ؛ إذ السَّبقُ الوجوديُّ مُشعِرٌ بالإرهاصِ والتَّقدِمة للكتابِ الخاتِم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 24.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 31.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 141.

تعيينُ مَرجِعِ الضَّميرِ في ﴿قَبْلِهِۦٓ﴾:

نباهةُ الشَّأنِ والأمرِ مُغنيةٌ عن صَريحِ الذِّكر

عادَ الضَّميرُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ إلى القُرآن الكريم بعنوانِ أنَّه الحقُّ، وأنَّه من عندِ اللهِ سُبحانَهُ، وفيه إشارةٌ إلى نباهةِ شأنِهِ حتّى إنَّه يَلتفِتُ الذِّهنُ إليهِ بمجرَّدِ فَهْمِ السِّياق دونَ التَّصريحِ باسمِهِ.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه:

تقديمُ مَناطِ الاهتمامِ ممّا يَتطلَّبُهُ المَقام

قُدِّمَ متعلَّقُ الخبَرِ على المبتدأ[1] في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ اهتمامًا بالخبر؛ إذ هو مَناطُ الجِدال والاختلاف، فإنَّ جَحْدَهم له قائمٌ على أنَّه إفكٌ وافتراءٌ على اللهِ تعالى، وأنَّ اللهَ لا يوحي كتابًا إلى البشر، ولا يَختارُ رسولًا من النّاس، وذلك مُفيدٌ أنَّه لم يأتِ قبلَهُ كتابٌ ولا رسولٌ، فكان تقديمُ الخبر الَّذي هو مناطُ الاهتمام ممّا يَستدعيه المقامُ، ويَتطلَّبُهُ الحالُ.

ورجَّحَ الطَّيبيُّ أن يكونَ لفظُ ﴿كِتَٰبُ﴾ فاعلًا للظَّرف، فلا يكون في الجملة تقديمٌ، والتَّقدير: (حصلَ، ومَضى من قبلِهِ كتابُ موسى إمامًا)[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ دون (التَّوراة):

نزولُ الكتبِ على البشَرِ أمرٌ ثابتٌ ومُقرَّر

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن تسميةِ المُنزَلِ على موسى ﷺ باسمِهِ العلَم (التَّوراة) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ لإثباتِ أنَّ اللهَ تعالى يُرسِلُ الرُّسُلَ إلى البَشر، ويُنزِلُ عليهم الكتبَ[3].

دلالةُ الإضافةِ ونوعُها في ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾:

تعريفُ الكتابِ وتمييزُهُ أتمَّ تمييزٍ

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الكتابَ إلى موسى في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ للدَّلالةِ على تعريفِ الكتابِ وتعيينِه،

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 301.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 284.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 24.

والغرضُ من التَّعريفِ له تمييزُهُ عن سائرِ الكتبِ المُنزَّلةِ باشتمالِه على التَّوحيدِ والمعادِ ونبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، كما أنَّه ناظِرٌ لشهادةِ الإسرائيليِّ على صحَّةِ القرآن الكريم بمثلِه، وكانَ الاقتصارُ عليه تنبيهًا على شهادةِ هذا العالِمِ المُؤمن بصِدقِ نبوَّةِ محمَّد ﷺ.

بيانُ صاحبِ الحالَيْنِ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾:

لفظا ﴿إِمَامًا﴾ ﴿وَرَحْمَةً﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ، وفيهما بيانٌ لهيئةِ صاحبِهما أنَّه إمامٌ، وأنَّه رحمةٌ، ويجوزُ أن يكونَ صاحبُ الحالِ هو المضاف (الكتاب)، أوِ المضافَ إليه، وهو (موسى)، فيكونَ الكتابُ إمامًا ورَحمةً، أو يكونَ موسى ﷺ إمامًا ورَحمةً، ولا تنافيَ بين المعنيين، فإنَّ موسى ﷺ وكتابَهُ كذلك، إلّا أنَّ الحالَيْنِ أُفْرِدا، ولم يُثنَّيا؛ لكونِهما مَصدرين.

تعدُّد الاحتمالاتِ إثراءٌ للمعاني وتوسيعٌ لَها

كما يحتملُ أن يكون الكتابُ إمامًا وموسى رحمةً على سبيلِ التَّوزيعِ.

وجائزٌ أن يكونا من الأحوالِ المُتداخلةِ، فتكونَ (رحمة) حالًا من ﴿إِمَامًا﴾، والغرضُ من ذلك تنزيهُهُ عن أن يكونَ إمامًا ذا قَسوةٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحالينِ مَصدرين:

جاءَ التَّعبيرُ بالحالينِ مَصدرينِ في قول اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ مع أنَّ الأصلَ في الحال أن يكونَ وصْفًا مُشتقًّا؛ وذلك لأنَّ المصدر يدلُّ على حقيقةِ الإمامةِ والرَّحمة، فيفيدُ المُبالغةَ في الاتِّصافِ بهما، حتّى كأنَّ صاحبَ الحالِ صار عينَ الإمام المُتَّبع وعينَ الرَّحمة بكَمالاتِهما وشَرَفِهما.

المدحُ بالمَصادِرِ إعلاءٌ للمَفاخِرِ

نكتةُ تقديمِ ﴿إِمَامًا﴾ على (رَحمةً):

قُدِّمَ لفظُ ﴿إِمَامًا﴾ على (رحمةً) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؛ لأنَّ الإمامَ هو المُتَّبَعُ، والرَّحمةُ صفةٌ من

اتِّصافُ الإمامِ بالرَّحمةِ نفعٌ لجميعِ الأُمَّةِ

صفاتِه، فيكونُ تقديمُ الإمامِ على الرَّحمة مُناسِبًا للواقعِ وملائمًا مع قبليَّةِ النُّزول، وفي هذا التَّقديم إشارةٌ إلى أنَّ الإمامَ ينبغي لَهُ الاتِّصاف بالرَّحمة؛ لأنَّه بإمامتِه مُتَّبَعٌ ومُقتدًى به، فتكون الرَّحمةُ رِعايةً بمَن خلفَهُ، وتَنزيهًا له عنِ القَسْوة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿إِمَامًا﴾:

حُسنُ القُدوة دالٌّ على صِدقِ الدَّعوة

استُعيرَ لفظُ ﴿إِمَامًا﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا﴾ للقُدوةِ المتَّبع والنَّموذج المُعتبَر؛ إذ أصلُ الإمامِ الحبلُ الَّذي يَجعلُهُ البنّاءُ مِقياسًا في العمَل[1]، فقد شُبِّهَتِ القُدوة بذلك الحبلِ الَّذي يكونُ مقياسًا ومعيارًا، والغرضُ من الاستعارةِ إخراجُ المعنويِّ في صورةِ الحسّيِّ، وأنَّ مُنزِلَ القرآن الكريم هو منزلُ كتابِ موسى الذي جعلَهُ بما تضمَّنه من عقيدةِ التَّوحيد أنموذجًا يدلُّ على أنَّهما كتابانِ مُتَتابِعانِ على منهاجٍ واحدٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (رحمة):

كمالُ النَّفعِ في الكتبِ المُنَزَّلة

استعارَ النَّظمُ لفظَ (رحمة) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؛ للكتابِ الَّذي أُنزِلَ على موسى ﷺ في نَفْعِهِ لِلمُقْتَدينَ والعاملينَ به؛ إذ شُبِّهَ الكتابُ في نَفْعِهِ بالرَّحمةِ الَّتي مِن آثارها في حقِّ المخلوق: رقَّةُ القلبِ المُقْتَضِيةُ النَّفعَ والإحسانَ للآخرين، وذلك بجامعِ ترتُّبِ النَّفعِ في كلٍّ، والغرضُ من الاستعارةِ الدَّلالةُ على أنَّ تعاليمَ التَّوراة تشتملُ على نفعِ المتَّبعينَ له.

مَعْنى (الواو) في قولِه: ﴿وَهَٰذَا﴾:

نَظيرُ الحقِّ حقٌّ، ونظيرُ الباطِلِ باطِلٌ

الواو في ﴿وَهَٰذَا﴾ من قول الله تَعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على ما قبلَها عطْفَ المَقيسِ على المقيسِ عليه، فإن كان كَذِبًا؛ فالمقيسُ عليه يكونُ كذلك، وبما أنَّ المَقيسَ عليه إمامٌ

(1) العسكري، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 180.

ورحمةٌ؛ فإنَّ هذا الكتابَ كذلكَ إمامٌ ورحمةٌ، فتَجبُ مُتابعتُهُ؛ لما اشتملَ عليهِ من نفعٍ وإحسانٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في اسم الإشارة (هذا):

الـحُـضـورُ في الذِّكر والأذهان كـالـحُـضـورِ في الأعيانِ

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الإشارةِ (هذا) الموضوعَ للمُشاهَدِ المَحسوسِ المُبصَرِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ للإشارةِ إلى القرآنِ والكتابِ الحاضِرِ في الذِّكرِ والذِّهن؛ بجامِعِ الحُضور والتَّعيُّنِ في كلٍّ؛ إيماءً إلى وضوحِ القُرآن وظهورِ حضورِهِ حتَّى كأنَّهُ حاضِرٌ بذاتِهِ.

نكتةُ إيثارِ ذكرِ اسمِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تَساوِي الكتابينِ في أصلِ إنزالِهما مِنَ اللهِ سُبحانَهُ

جاء التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ ليكونَ مناسبًا للفظِ ﴿كِتَٰبُ﴾ المُضافِ في قوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ لبيانِ اشتراكِهما في إطلاقِ لفظ "الكتاب" عليهما، وأنَّ المُنزَلَ عليه بشرٌ، وهو موسى ﷺ، والمُنزَلَ عليه هُنا هو بشَرٌ أيضًا، وهو محمَّدٌ ﷺ، فلا فرقَ بين الكتابينِ في أصلِ إنزالِهما مِنَ اللهِ تَعالى.

وفي الإخبارِ عنِ المُشارِ إليه بأنَّه كتابٌ هوَ مِنَ الإعجاز الغيبيِّ؛ إذ يدلُّ على أنَّ هذا القرآن الكريم سيكونُ مَكتوبًا مجموعًا في كتابٍ.

فائدةُ تنكيرِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تفخيمُ القُرآنِ الكَريمِ وبيانُ جَلالِهِ وجَمالِهِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ بخلافِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، فقد عُرِّفَ بالإضافَةِ؛ للدَّلالةِ على فَخامةِ هذا الكتاب وجمالِهِ وجَلالِه، فلم يَرِد في النَّظم القرآني: "وهذا كتابُ محمَّدٍ ﷺ"؛ لأنَّه الكتابُ الجامِعُ لما قبلَهُ المانعُ من أن يأتيَ كتابٌ خلفَهُ، فلم يُنسَب للنَّبيِّ ﷺ؛ لئلّا يُتوَهَّمَ اختصاصُهُ بزمنٍ.

فائدةُ وصف الكتابِ بكونِهِ مصدِّقًا:

وُصِفَ الكتابُ بكونِهِ مُصدِّقًا لما تقدَّمه من الكُتُبِ السَّماويَّةِ في

خَـتْـمُ الـكـتُـبِ الـسَّـمـاويَّـة بِأعْظَمِها قَدْرًا

قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا يخالفُها في أصولها الصَّحيحة، بل يقوّيها، ويُبيِّنها، ويُصحِّحُ ما حرَّفه النّاسُ منها، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه الكتاب المكمِّل المهيمنُ على ما تقدَّمه.

نكتةُ حذفِ متعلّق التَّصديق:

هَيمَنَةُ القُرآن الكريمِ عَلى جَميعِ ما تقدَّم مِنَ الكتُبِ

حُذِفَ متعلِّق التَّصديق في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعميم والشُّمول؛ إذ إنَّ حذفَ المتعلِّق مؤذِنٌ بذلك، فليسَ هوَ مصدِّقًا لكتابِ موسى ﷺ فحسبُ، بل هو مُصدِّقٌ لكلِّ الكُتُب والرِّسالات السّابقةِ بجميعِ إخباراتِها وأدلَّتِها ومُعجزاتِها وأصحابِها[1].

بلاغةُ المَجازِ المُرسَل: ﴿لِّسَانًا﴾:

آلـةُ النُّطقِ والتَّعبير اللِّـسـانُ

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ للتَّعبيرِ عن اللُّغةِ لفظَ (اللِّسان) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، وأصلُ اللِّسانِ: العضوُ المخصوصُ داخلَ الفم، واستعماله في اللُّغةِ مجازٌ مرسَلٌ من تَسميةِ الشَّيء باسم آلتِه؛ لأنَّ اللِّسانَ آلةُ اللُّغة، وفي العُدولِ عن التَّعبير باللُّغةِ إلى التَّعبيرِ باللِّسانِ الإشارةُ إلى أنَّ الاختلافَ في اللُّغاتِ هيَ من حيث عاداتُ اللِّسانِ في النُّطق وطريقتُهُ في التَّصويت، كما قالَ اللّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم 22].

براعةُ استعمالِ الحالِ ﴿لِّسَانًا﴾ دونَ (قُرآنًا):

عـنـدَ الـقـيـاسِ والمُـقـارنـةِ تُـذكَـرُ الـوجـوهُ المُـتـشـابـهـةُ والمُتفاوتة

جاء التَّعبيرُ بالحالِ ﴿لِّسَانًا﴾ من ضميرِ الكِتاب في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾[2] في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ للدَّلالةِ عَلى أنَّ هذا النّظمَ المُصدِّقَ يرتفع في ربوة البيان أن يكون بلسان ناطق بأفصح بيان لا يحيد عن الكتب السابقة في دعوته ومضمونه وبلاغه؛ ولذا

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 284.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 519.

آثرَ في هذا المقامِ لفظَ اللِّسانِ على لفظِ (القُرآن)؛ لأنَّه في مَعرضِ القياسِ؛ لإثباتِ صِدقِ القرآنِ بصدقِ الكُتب السَّماويَّة مُؤشِّرًا على مَوطِنِ التميُّز فيها بعدَ تحديد موطن التصديق والاتِّفاق.

الموقع الإعرابي للفظ ﴿لِّسَانًا﴾:

مجيءُ لفظ (لسانًا) من مُقتضيات التّصديقِ بالتّوراة

"قوله: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ في معنى التَّعليلِ، أي: مُصدِّقٌ لكتابِ موسَى لكونِهِ لِسانًا عَرَبِيًّا، أي: لإعجازِهِ البشرَ عن مُعارضتِهِ معَ كونِهِ كلامًا واردًا عَلَى لغتهم"[1]، وذهبَ الزَّمخشريُّ إلى أنَّه يجوزُ: "أن ينتصبَ حالًا عن ﴿كِتَابٌ﴾ لتخصُّصِهِ بالصِّفة، ويعملُ فيه معنى الإشارة، وجوِّزَ أن يكونَ مفعولًا لـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: يُصدِّقُ ذا لسانٍ عربيٍّ، وهو الرَّسولُ"[2].

وذكر الزَّجاج أنَّ لفظَ ﴿لِّسَانًا﴾ توكيدٌ، كما في قولهم: جاءني زيدٌ رجُلًا صالحًا، والمرادُ: جاءني زيدٌ صالحًا؛ إذ مِنَ المعلوم أنَّ زيدًا رجلٌ، فيكون ذِكْرُ (رجلًا) توكيدًا[3]، ويُسمِّي أبو البقاء العكبريُّ هذهِ الحالَ حالًا موطِّئةً[4].

فنُّ الإدماجِ في لفظِ ﴿لِّسَانًا﴾:

إقرارُ الإسلامِ للخُلُقِ الحَسَن وإبطالُه السَّيِّئَ مِنْها

أدمجَ النَّظمُ لفظَ ﴿لِّسَانًا﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، دون الاقتصارِ على لفظِ ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ وذلك للإيماء إلى أنَّ المرادَ عربيَّةُ ألفاظِهِ لا عربيَّةُ أخلاقِهِ وتعاليمِهِ؛ لأنَّ أخلاق العرب كان فيه الحسن والسَّيِّئ، فلمّا جاء الإسلامُ؛ أبطلَ السَّيِّئَ، وأثبت الحسنَ، وزادَ عليه[5].

(1) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/ 464.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 301، ويُنظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 113.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 441.
(4) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/ 464.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 25.

فائدةُ ذكرِ النَّعتِ ﴿عَرَبِيًّا﴾:

بَـيـانُ عَـظَـمـةِ اللِّسانِ العَرَبِيِّ وشرفِه

وُصِفَ اللِّسانُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ بالعربيِّ، مَدْحًا لهذا اللِّسانِ الشَّريفِ، فإنَّه أفصح الألسنَةِ، وأنفذها في قلوب السّامعين، وأوسعُها إحاطةً بالمفردات والتَّراكيبِ[1].

معنى (اللّام) ودلالتُها في قولِهِ: ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

بيانُ حِكْمَةِ إنزالِ القُرآنِ الكريمِ

اللّامُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على تَعليلِ إنزالِهِ بلسانٍ عربيٍّ، وهوَ تعليل غايةٍ وحكمةٍ؛ إذ تضمَّنَ كونُهُ مُصدِّقًا لسائرِ الكتب أنَّه مُنزَلٌ منَ اللهِ تعالى لإنذارِ الظّالمين لعلَّهم يَرجعون، والغرضُ من هذا التَّعليلِ بيانُ حِكمةِ الإنزالِ واختيارِ اللِّسانِ العربيِّ المُبينِ المُفصحِ عن مُرادِ اللهِ تعالى إفصاحًا لا يتحقَّقُ لِلُغةٍ أُخرى، فكان في هذا تنويهٌ بشأنِ اللُّغةِ العربيَّةِ وأهمّيَّتِها وفصاحتِها العالية، ويجوزُ أن يتعلَّق ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بقولِهِ قبلُ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ إذ إنَّ ما تقدَّمه مشتملٌ على النِّذارة والبشارةِ، أو أن يكون متعلِّقًا بما في لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ من دلالتِه على الإرشاد المتضمِّن النِّذارةَ والبشارةَ، واستحسنَ هذا ابنُ عاشور؛ ليكون ﴿لِّيُنذِرَ﴾ علَّةً للكتابِ بالنَّظرِ إلى وصفِهِ وحالِهِ[2].

بلاغةُ الاحتباك والمَجازِ العقليِّ في قراءتَي: ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

النِّذارة والبشارة متحقِّقتان في كلٍّ مِنَ الكِتابِ والرَّسولِ ﷺ

فعلُ الإنذار (يُنذر) من قول اللهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قرأَهُ بالتّاءِ (تُنذرَ) نافعٌ وابن عامرٍ وأبو جعفرٍ ويعقوبُ والبزّيُّ عن ابن كثيرٍ[3]، على أنَّه خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، فيكون في هذا وصفٌ للنَّبيِّ ﷺ أنَّه مُنذرٌ، ولكتابِهِ بالبشارةِ، فيكون في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 25.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 26.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 3/ 372.

احتباكٌ[1]؛ إذ حُذِفَت البِشارةُ من الجملةِ الأولى؛ لدلالة البُشْرى في الجملة الثّانية عليه، وحُذِفَت النِّذارة من الثّانية؛ لدلالة الجملةِ الأولى عليه، فيكون التَّقدير: وهذا كتابٌ مصدِّق لسانًا عربيًّا لتُنذرَ الذين ظلموا، وتُبشِّر الذين آمنوا، ويكون الكتاب بُشْرى للمحسنينَ وإنذارًا للمسيئين، وتخصيصُ الإنذارِ بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه المُخوِّفُ من عذابِ اللّه تَعالى، وتخصيصُ البِشارةِ بالكتاب؛ لأنَّه بعدَ التَّخويفِ النَّبويِّ يلجَأ المُخوَّفُ للكتابِ ليسمعَ البِشارات.

وقرأ باقي العشرة ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء على أنَّه خبرٌ عن الكتاب، فيكون إسنادُ النِّذارة إلى الكتاب مجازًا عقليًّا[2]، كما أنَّ إسنادَ (البشرى) للكتابِ على الأوَّلِ والثّاني مجازٌ عقليٌّ كذلكَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

ميلُ النُّفوسِ إلى الشَّهوات يَقْتَضي دوام التَّخويفِ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّد التَّخويفِ والتَّهديد تجدُّدًا استمراريًّا؛ إذ النُّفوسُ تميلُ إلى الشَّهواتِ وزينةِ الحَياةِ الدُّنيا، فتحتاجُ إلى تخويفٍ متجدِّدٍ من عاقبةِ الانجرارِ وراءَها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِهِ:

الإنْذارُ عامٌّ، وهو للظّالِمين أظهَرُ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ دونَ اسمِ الجنسِ كـ (أهل مكَّة) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للإشارةِ إلى علَّةِ الإنذارِ والتَّخويف، وهو الظُّلْمُ الَّذي يقومُ بالكافرينَ والجاحِدين، والإنذارُ وإنْ كان عامًّا لجميعِ النّاس، إلّا أنَّهُ خُصَّ الظّالمونَ به؛ لأنَّ الإنذارَ في حقِّهِم أدَلُّ وأوضحُ، وهُم إليه أحوجُ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الظُّلْمِ في جملةِ الصِّلَةِ:

جاءَ التَّعبيرُ بـ (الظُّلم) دونَ (الكُفر) في قولِ اللّهِ تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 26 - 27.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 27.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكُفر ظلمٌ بل أشنعُ أنواعِ الظُّلْمِ؛ لأنَّ جُحودَ المُنعِمِ الحقيقيِّ وعبادةَ غيرِهِ ظُلمٌ للّه ﷻ، وظُلْمٌ للنَّفْسِ، كما لا يَخلو الكُفّارُ من صُدورِ أنواعِ الفَسادِ والإفسادِ في الأرضِ بالأعمالِ المُنكرَةِ.

الظُّلْمُ أعمُّ من الكُفرِ مطلقًا

وقد أفادَ التَّعبيرُ بالظُّلم شمولَ الكُفر وغيره من أفعالِ المَعاصي وطاعةِ النَّفس والهَوى، فيكونُ الإنذارُ للكافرينَ والعُصاةِ معًا.

وفي التَّعبير بالفعلِ الماضي ﴿ظَلَمُواْ﴾ في جملة الصِّلةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إيماءٌ إلى تحقُّقِ الظُّلْمِ مِنْهُم، وإشارةٌ إلى أنَّ الظُّلْمَ أمرٌ حادِثٌ مخالِفٌ للفطرةِ التي فطرَ اللّهُ تعالى عليها العبادَ.

تعيينُ المعطوفِ عليه في ﴿وَبُشْرَىٰ﴾:

عُطِفَ المصدرُ الصَّريحُ (بُشرى) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ على المَصْدَرِ المُؤَوَّل من (أنْ) المضمرةِ والفعلِ في ﴿لِّيُنذِرَ﴾ من بابِ عطفِ المفعولِ لأجلِهِ على ما قبلَهُ[1]؛ تعليلًا لنزولِ القُرآن الكريم باللِّسان العربيِّ الفصيح.

تنوُّعُ أوجُهِ الإعرابِ إثراءٌ للمعاني وتوسيعٌ لَها

وأجازَ الطَّبري في قولِه: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ وجهَينِ منَ الإعراب، **أحدهما:** الرَّفعُ عطفًا على ﴿كِتَٰبٌ﴾، والتَّقدير: وهذا كتابٌ مصدِّق وبُشْرى للمحسنين، **والآخر:** النَّصْبُ، والتَّقدير: ليُنذرَ الذين ظلموا، ويُبشِّرَ المؤمنينَ[2].

علَّةُ العدولِ عن الفعل (ويُبشِّرَ) إلى الاسم (بشرى):

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن التَّعبيرِ بالفعلِ (يُبشِّر) إلى الاسمِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، فلم يرِد

البُشْرى ثابتةٌ للمُحسنين والإنذارُ مُتجدِّدٌ للظّالمين

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 31.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 111.

في النَّظم القرآني: ليُنذر الذين ظلموا، ويُبشِّر المحسنين؛ وذلكَ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والدَّوام، فإنَّ المحسنينَ لمّا كَمُلَت أعمالُهُم؛ جاءت البُشْرى وصفًا لحالهمُ الثّابتةِ.

دلالةُ اللّامِ الجارَّةِ في ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾:

انحصارُ البُشرى في أهل الإحسانِ

اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاختصاصِ، فالبُشرى مختصَّةٌ بالمحسنينَ، ويجوزُ أنْ تكونَ اللّامُ للملك؛ وذلك بتشبيهِ ما يُتَمَلَّكُ بما لا يقبَلُ التَّملُّكَ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

دلالةُ (ال) في ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾:

الإحسانُ علّةُ استحقاقِ البُشرى

عُرِّف لفظُ (المحسنين) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ بـ(الـ) دونَ المَوصولِ وصِلته، فلم يَرِد في النَّظم القرآني: (وبُشْرى للذين أحسنوا)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الاتِّصافَ بالإحسانِ هو الأصلُ في النَّفسِ والأوفقُ للفطرةِ، فكان التَّعبيرُ بالاسمِ دالًّا على الثُّبوتِ.

و(الـ) في ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ دالَّةٌ على الاستغراقِ، وذلك أبلغُ في مدحهم والتَّنويه بشأنِهم؛ إذ يُفيد ذلك أنَّ حقيقةَ البُشرى تشمَلُ جميعَ المتَّصفينَ بالإحسان.

وجائزٌ أن تكون (الـ) مَوصولًا، فتكون مفيدةً علَّةَ حصولِ البُشرى الكاملةِ لهُم، وهو الإحسانُ.

بلاغةُ العُدولِ عنِ الإيمانِ والعدلِ إلى الإحسان:

الإحسانُ إتقانٌ للأعمال الظّاهرة والباطنةِ

جاء التَّعبيرُ بلفْظِ (الإحسان) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ دون صفةِ الإيمانِ والعدلِ؛ ليكونَ الإحسانُ في مُقابلِ الظُّلم الجامعِ بينَ الكُفرِ والفَساد، وفي ذلك العدولِ إشارةٌ إلى أنَّ البُشرى الكاملةَ هِيَ للمُؤمنينَ الَّذين أحسَنوا في أعمالِهم، ولم يَظلِموا أنفُسَهم، فيكونُ الإحسانُ جامعًا للأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ على وجهِ الكمالِ والإتقانِ.

وعُدِلَ عن لفظ "العادِلين" مع كونِهِ مقابلًا لقولِهِ قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إلى التَّعبير بـ (المحسنين)؛ ليكون وسيلةً إلى البشارةِ المذكورةِ بعدُ في قوله: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لمَن قال: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[1].

بلاغةُ العُدولِ عنِ: (الَّذين أحسَنوا):

الاستِقامةُ الكاملةُ في العبادِ قليلٌ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عنِ التَّعبيرِ بـ (الَّذين أحسَنوا) بعدَ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه النِّذارة حاصلةٌ لمن وُجِدَ منهم ظُلْمٌ، وأمّا البِشارَةُ؛ فهي لِمَنْ ثبتَ، واستقامَ على الإحسان والإخلاص؛ إعلامًا بأنَّ العَبْدَ محتاجٌ ومفتقِرٌ إلى ما يُهذِّب به نفسَهُ؛ إذ الاستقامة على الصِّراط المستقيم لا توجَدُ إلّا في أفرادٍ[2].

فالتَّعبيرُ بالاسمِ (المحسنين) دالٌّ على تلبُّسِ الإحسانِ بهم واستقرارِه فيهم وثباتِهِ عندَهم.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 284.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 284.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"